من انوار الحديث " من كانت الاخرة همه جمع الله له شمله

من أنوار حديث «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ...»

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد(*)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَذَكَرَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ فَلا يُمْسِي إِلَّا فَقِيرًا ولا يُصْبِحُ إِلَّا فقيرًا، وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللهِ بِقَلْبِهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ العِبَادِ تَنْقَادُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ والرَّحْمَةِ وَأَسْرَعَ اللهُ إِلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ»[1] صدق رسول الله ﷺ.

بُنِي الحديثُ الشريفُ على ثلاث جمل، كلها تعاونت في تمييز العبودية الحق عن العبودية الزائفة، وبيان عاقبة كل صنف منهما، وقد وُزِّعت هذه الجمل توزيعًا بديعًا، إذ افتُتحت ببيان العلامة البارزة لأهل العبودية الحق: «من كانت الآخرة همه»، وبنيت بأسلوب الشرط، وكان الشرط واحدًا والجزاء ثلاثة أشياء، أعقبها بسِمَة من شغلتهم الدنيا بطريق البناء التركيبي نفسه، فنسج الحديث على الشرط والمقابلة وأسلوب القصر وهي الأساليب المحققة للمقصود، ثم ختم بجملة التفت فيها إلى مطلع الحديث: «وما أقبل عبد على الله بقلبه...» لتضيف عطاءات لمن كانت الآخرة همه، والجمل الثلاثة ترتكز على إغرائه ﷺ بالآخرة وعطاءاتها، وتحذيره ﷺ من الدنيا وغرورها وخسارة من أقبل عليها، وقد بني الحديث عنهما بجملتين بأسلوب الشرط، وأسلوب الشرط هو المناسب، لماذا؟ لأنه يتكون من شقين من الشرط وجزائه، كما أن الشرط في الجملتين أمر واحد جاءت عليه ثلاث جزاءات «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ»، أي من يجعل الآخرة هي شغله الشاغل ويجعل الآخرة هي مقصده الأسمى، وغايته الأسنى، وإليها جل سعيه، وهي غاية كده وكَدْه، فمن حقق هذا الشرط نال جزاءات ثلاثة:

الجزاء الأول: «جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ»، الجزاء

(*) رئيس جامعة الأزهر سابقًا، وعضو مجمع البحوث الإسلامية.

(١) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١١٦٩٠) وله شاهد من حديث أنس بن مالك أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٦٥).

الثانـي: «وَجَعَـلَ غِنَاهُ بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ»، والجزاء الثالث: «وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

حينما نتأمل في بنية هذا النص الشـريف نـرى أن المصطفـى ﷺ اختار هـذه الألفاظ بعناية بالغة؛ لأنه يكشـف عـن حقيقة القلوب فقال: «مَنْ كَانَتِ الآخرة هَمَّهُ» ولم يقل: قصده، ولم يقل: غرضه، لماذا؟ لأن الهم هو ما يشـغل الإنسان دائمًا في يقظته وفي منامه في حركته وسكونه، لذا كله اصطفى لفظ الهم على سواه لتكـون الآخرة شـغل النـاس الشـاغل لضبط تصرفاتهـم فـي الحيـاة بما يبيّـض وجوههم يـوم اللقاء، ثم جاءت الجـزاءات تترى من بعد الشـرط، وتعدد الجزاءات يغـري على تحقيق الشرط ويحرض عليه.

الجـزاء الأول: «جَمَـعَ اللَّـهُ لَهُ شَـمْلَهُ» عبر بجملـة فعليـة فعلها مـاضٍ تحقيقًـا للوقوع وتأكيـدًا له، وجاء المسـند بلفـظ الجلالة وهو أَهْيَبُ أسـماء الله -عـز وجل- إعلانًا لتفرده - سـبحانه- بهذه القدرة، وقدم الجار والمجرور علـى المفعول به اعتناء بالمؤمن المتجه بعمله للآخرة المهموم بها، وإيذانًا بعجز الإنسان عن جمع شمل نفسه، وجاء بلفظ الشمل مفعولا به وهو لفظ عام شامل لكل ما هو مادي ومعنوي مما يشغل الإنسان، ويصير من شغله به بمثابة الجـزء الذي كان منـه ثم تبعثر وتشـتت فكل مـا كان وذهب عنك كنت أشـغل برده وجمعه عليك، وهو الملائم للفظ الخبر في فعل الشرط «مـن كانت الآخرة همه» فمن جعل الآخرة همه كفـاه الله هم الدنيا كلها فـلا صلاح في الدنيا ولا لهـا إلا بأن تكون الآخرة هي الهم الأسـمى، ولا سعادة في الدنيا والشمل في شتات، والهم عدو شـرس يقض المضاجع ويجعـل الحليم حيرانـا، لكن قاصد الآخرة بسـعيه في عيشـة راضية وطمأنينة نفس صادقة.

الجزاء الثاني: «وَجَعَلَ غِنَاهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ» هذا الجزاء كأنه نتيجة مرتبة على الجزاء الماضي، لذا جاءت البنية التركيبية واحدة فعبر بالماضي تحقيقًـا للوقوع، والفاعل ضمير مسـتتر يعود على لفـظ الجلالـة، وفـي إضافة الغنـى إلى الضميـر تناسـب مع واقـع الإنسـان، فالغنى يتبايـن مقـداره بتباين الحاجات والشـهوات، فمراتـب الغنـى متفاوتـة وآمال النـاس كذلك متفاوتة، فلكل إنسـان مقاييـس للغنى عنده، فالإضافـة فيها معـانٍ جليلةٍ فانظـر ما يفوت من هـذه المعاني لو قيل: «وجعـل الغنى بين عينيه» ثم انظر إلى هذا القيد البديع في الجملة «بين عينيه» وما يصنعه الله بمن كانت الآخرة همـه فلا ينظر إلا إلى ما أعطـاه الله من الدنيا ويكـون نصب عينيـه، ولا يلتفت عنه لسـواه، وإنما ذَكَرَ العينَ لأنها آلةُ البصر والرسـولُ إلى القلب والمغـذي أداةَ الوعـي والإدراك، والغِنى حينما يكون في القلب فالدنيا كلها لا تسـاوي عند المسلم شـيئًا، كما أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضـة، وحينما يجعل اللـه الغنى في القلوب، فإن الإنسـان يزهد فـي الحياة والزهد هنا ليس معناه زهد الفاقد الذي لا يملك شـيئًا في الحياة، ولا يسـعى إلى طلبهـا، ولا يجتهد في تحصيل الغنى بالحلال، وإنما الزهد المراد

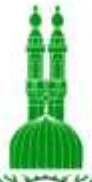

هنا هو زهد الواجدين الساعين في الحياة إلى تحصيل الحلال، والآخرة هي هدفهم الأسمى فيكون نافعًا لنفسه، نافعًا لذوي رحمه، نافعًا لأسرته، نافعًا لمجتمعه، فلا يجعل المال هو الوسيلة الأساسية أو هو المقصد الأساسي، فمن كان كذلك جعل الله غناه في قلبه.

الجزاء الثالث: «وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»، تأمل بناء الجملة وقد جاء الفعل فيها بصيغة الماضي تحقيقًا للوقوع، وعبر بالإتيان تناسبًا مع كونها أتت طائعة مختارة، وفي إسناد الفعل إلى الدنيا تشخيص وتجسيد لها، وإلباسها ثوب الإنسان؛ لأن المعاني إذا قامت في النفس قيامًا مؤكدًا استحال المعنى شيئًا ماديًا، ثم قُيِّدت الجملةُ بجملة حالية اسمية دلالة على الثبوت والدوام، وهي جملة جعلت من كانت الآخرة همَّه سيدَ الدنيا، إذ خضعت أمامه ذليلة ممرغًا أنفها بالتراب، طلبًا لرضاه لما كان همه طلب رضا مولاه، وهكذا شأن الدنيا من سعى إليها استعبدتهُ، ومن عزف عنها سعت هي إليه، هكذا ينبهنا الحبيب ﷺ.

ثم تجيء الجملة الثانية في الحديث، وقد بناها النبيﷺ أيضًا بأسلوب الشرط، وهو يتحدث عن الدنيا بعدما حدثنا عن الآخرة في الجملة الأولى، الجملة الثانية هي ترقيةٌ لمعنى الجملة الأولى، وتأكيد عليه «وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لهُ فَلا يُمْسِي إلَّا فَقِيرًا ولا يُصْبِحُ إلَّا فقيرا» واختار النبيﷺ لفظ الدنيا وفيه من الحقارة ما فيه «وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ» واتجه البناء التركيبي اتجاه البناء السابق ذاته؛ لأنها بنيت على المقابلة، وقد جاءت العواقب تترى.

العاقبة الأولى: عبرت عنها الجملة «فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُ»، وقد بنيت بناء «جمع الله شمله» تحقيقًا للوقوع ففرّق هنا مقابل جمع هناك، فطالب الدنيا في شتات حسًا ومعنى إذ تتوزع أعماله توزع شهواته، فلا يجتمع له جهد، ولا تستقر له نفس، ولا يغمَض له جفن.

العاقبة الثانية: عبّرت عنه الجملة الثانية «جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ» وكما ترى فإنه قد وضع فقره موضع غناه في الجملة السابقة، وأضاف الفقر لضمير من كانت الدنيا همه كما أضاف الغنى إلى الضمير العائد على من كانت الآخرة همه، ليفيد معاني قبيحة على نحو ما أفادته الجملة السابقة من معاني جليلة فكل قبح تفيده هذه العبارة يرفع من جلال المعاني التي أفادتها الجملة السابقة، ثم انظر إلى العبارة «جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ» وتحويل الأمور المعقولة إلى أمور محسوسة، وانظر صورة من يجعل الدنيا همه، كل ذلك يجعل الله الفقر كائنًا محسوسًا يُشَاهَدُ بالأعين، فهو كلما تحرك حركة في الحياة يطارده خيال الفقر، وأنه ينشط بتصرفاته خيال الفقر حتى ولو كان يملك من الدنيا الملايين، فإن الله -تبارك وتعالى- يجعل الفقر ماثلًا أمامه دائمًا، وخشية الفقر تؤدي إلى سحق النفس في هذه الحياة والعزوف عن الآخرة، فالناس ـ كما قيل: من خشية الفقر في فقر، هكذا يصور

النبي ﷺ المعاني المعقولة.

العاقبة الثالثة: «وَلَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ»، الجهد وإن كثر مع الفوائد هيّن، فعند الصباح يحمد القوم السرى، لكنه حينما يفضي إلى لا شيء يكون بذله حسرة وندامة، لذا جاءت الجملة منفية بأداة الجزم تحسيرًا وتنديمًا لطلاب الدنيا الذين جعلوها أكبر همهم وغاية سعيهم، فكانوا قومًا بورًا، وبنيت الجملة بأسلوب القصر زيادة في التحسير لما في القصر من تأكيد المعاني، وعبر بالقدر في «قدر له» ردًا له إلى رحاب الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، فالرضا يطيب القضاء، ويهون الأقدار، ويجعلها بابا للعطاء الإلهي، لما عليه أهل الصفاء من أن العطايا تأتي على متن البلايا، فهم إلى العطايا ينظرون وبها ينشغلون، وهم بالبلاء راضون وعليه صابرون، لذا يكون مر الحياة عند سواهم هو حلوها.

ثم فرّع على الجملة السابقة جملة أخرى «فَلا يُمْسِي إلَّا فَقِيرًا ولا يُصْبِحُ إلَّا فقيرًا» وقد جاءت الجملة بأسلوب القصر، مستوفية أطراف عمر الإنسان فما هو إلا صباح ومساء، وبدأ بالمساء على النهج الرباني في تصريف الكون، فالليل أصل والنهار فرع عنه، على حد ما جاء في التنزيل العزيز:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ (يس: ٣٧)

كما أنه بدأ بالمساء لأنه محط الهموم، ومجتمع الغموم، وعنده تحضر الكروب وتشتد كما قال الأول:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولَه
عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

وقال الآخر:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أميمةَ ناصبِ
وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكب

وقال غيره:

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً
ويُشيبُ ناصيةَ الصبيّ ويُهرم

فمن كانت الدنيا همه مشغول دائمًا بالضائع المفقود من النّعم غافل عن الحاضر الموجود من النعيم، فهمّه شديد، إذ يبقى مع الذي جعله الله بين عينيه «فقره» فهو مغموس فيه، ويصبح كما أمسى، وذِكْرُ طرفي الوقت كنايةٌ عن دوام ذلك الحال واستمراره، فهو في كآبة دومًا.

ثم جاء بما يؤكد المعنى الأساس، والمقصد الأول من الحديث وهو بيان شأن من كانت الآخرة همه بهذه الجملة «وما أقبل عبدٌ على اللهِ بقلبِهِ إلَّا جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ العبادِ تنقادُ إليهِ بالودِّ والرَّحمةِ وأسرعَ اللهُ إليهِ بكلِّ خير» مما يكشف أن ذكر الجملة الوسطى جاء تأكيدًا لمقصود الحديث، والجزء الأول من هذه الجملة هو في معنى الجزء الأول من مطلع الحديث «من كانت الآخرة همه» ولا يقع ذلك إلا لمن كان مقبلًا على الله بقلبه؛ لأن عظمة الله -جل وعز- إذا سكنت قلب عبد، فإنه لا يعظم عنده غير الله -جل وعز- والإقبال على الله بالقلب هو جمع الوعي والإدراك بحيث لا يشغله غير الله، وقد بنيت الجملة بأسلوب القصر بطريق النفي

والاستثناء، وهو أصرح طرق القصر وأقواها، وهو تأكيد للمعنى واختصار له بأيسر طريق، والجزاء هاهنا جزاء وافر العطاء: «وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه بالود والرحمة»، وهذا ما نراه في حياتنا: ترى بعض الناس فتحبهم دون سبق معرفة، وترى بعض الناس فتكرههم دون أن تعرفهم، وسر ذلك يكشفه قوله - تعالى-:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾

(مريم: ٩٦)

فالعليم العلام هو وحده الذي يملك القلوب ويودعها المحبة، فمن أراد أن يلتف الناس من حوله ويحبوه فليقبّل على الله بقلبه وليعامل الناس بالمودة والرحمة، فإن كان على هذا الحال فإن قلوب العباد تنقاد إليه بالود والرحمة.

ثم جاءت عبارة ختمت الحديث «وجعل الله كل خير يسرع إليه» وهي كأنها بيان لعبارة «وأتته الدنيا وهي راغمة»، وقد بثت الجملة الحياة في الخير فأضفت عليه صفة الإنسان المحب الخير المسارع إليه، فيصير من كانت الآخرة همه، المقبل على الله بقلبه مطلوب الدنيا، وآمال الخير كله ومقصوده، لمَّا أعرض عن كل ذلك، وعلى الآخرة أقبل وبالله وحده تعلّق.

هذا وقد بُنِيَ الحديثُ بناءَ تناسق وترابط وثيق محكم، ينظر أوله إلى آخره، وآخره إلى أوله، وجاء وسطه ليكون معبرًا يؤكد على أوله وآخره، ولا يعني هذ الحديث إهمال الدنيا، بل المقصود إحسان العمل فيها وإتقانه، والكسب من الحلال والإنفاق فيه؛ لأنه لا سبيل للمؤمن الحق إلى إصلاح آخرته إلا بإصلاح دنياه، وإلا فكيف يتمكن من القيام بالحقوق لوالديه وزوجه وأولاده وأقربائه وجيرانه؟! فالدنيا معبرُ الآخرة وجسرُها، هكذا بين الحديثُ أصنافَ الناسِ وهم من هذا الجانب الذي هو أهم الجوانب صنفان.

هذه أقباس نور النبوة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***